مفهوم ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
ومقوماتها في القرآن الكريم

محمد أكرت

طالب باحث في سلك الدكتوراه،
جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
تطوان، المغرب

ملخص البحث

وضعت ملة إبراهيم الحجر الأساس لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في عقيدته وعبادته، وفي طريقة تفكيره واستدلاله ومناظراته مع الآخر، وما ينبغي أن يكون عليه في خضوعه واستسلامه لله، وفي آدابه وتعامله مع الناس بمختلف أصنافهم مسلمين وغير مسلمين.

هذه الشمولية من المقومات التي أعطت لملة إبراهيم تلك القيمة في أن تكون أحسن الدّين، وأن تكون الدين القيم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة المحمدية وألزمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتباعها.

لذلك هدف هذا البحث هو محاولة إبراز هذه الشمولية، من خلال الحديث عن مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم. متبعاً في ذلك المنهج التحليلي لتدبر الآيات التي تناولت الحديث عن ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتحليلها، واستنباط مقومات الملة الإبراهيمية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، ملة إبراهيم، المقومات، الاستدلال، التزكية.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وعظمته، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للخلق أجمعين، أكمل الله به الدّين، وأمره وأمته باتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وبعد:

فإنَّ ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قامت على «الشمولية»؛ لأن الحديث عن الملة هو حديث عن الدين ابتداء من العقيدة مروراً بالشريعة وانتهاء بالأخلاق والسلوك والآداب العامة.

فقد وضعت ملة إبراهيم الحجر الأساس لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في عقيدته وعبادته، وفي طريقة تفكيره واستدلاله ومناظراته مع الآخر، وما ينبغي أن يكون عليه في خضوعه واستسلامه لله، وفي آدابه وتعامله مع الناس بمختلف أصنافهم مسلمين وغير مسلمين.

هذه الشمولية من المقومات التي أعطت لملة إبراهيم تلك القيمة في أن تكون أحسن الدّين، وأن تكون الدين القيم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة المحمدية وألزمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتباعها.

أولاً: أهمية الموضوع:

يحتل موضوع البحث مكانة جد متميزة في الدراسات العلمية بصفة عامة، والدراسات القرآنية بصفة خاصة.

وتبرز هذه الأهمية بالخصوص من خلال:

- ارتباط الموضوع بكلام الله عَزَّوَجَلَّ وهو القرآن الكريم، الذي أمر الحق سبحانه بتدبّره، وفهمه، واتّباعه.
- تناول الموضوع لملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، التي أمر الله تعالى باتباعها؛ لما لها من خصائص يجب الوقوف عليها وإبرازها.

- الحاجة إلى دراسة تقف عند أبرز مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تبحث فيها، وتجلّيها حتى يحسن اتّباعها.

ثانياً: الهدف العام من البحث:

هذا البحث يحاول إبراز شمولية الملة الإبراهيمية من خلال الحديث عن مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم.

ثالثاً: مشكلة البحث:

أمر الله عَزَّوَجَلَّ باتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كثير من الآيات، وهنا يُطرح تساؤل مهم: هل تضمنت ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقوّمات جعلتها تحتل هذه المكانة المتميزة، والتي أهّلتها ليأمر الله عَزَّوَجَلَّ باتباعها؟ وإذا كان الجواب بنعم، ما هي أهم هذه المقومات؟

رابعاً: أهداف البحث:

يهدف البحث على تحقيق جملة من الأهداف، أهمها:

١. الكشف عن مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
٢. إبراز الخصائص التي تميزت بها ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
٣. بيان التكامل والانسجام بين الاعتقاد القلبي، والتفكير العقلي، والجانب العملي والسلوكي في ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

خامساً: الدراسات السابقة:

وقفت على جملة من الدراسات التي تناولت ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، منها:

- **ملة إبراهيم وحضارة الإسلام، يجب أن ندعو إليها على بصيرة وثقة**: أبو الحسن الحسيني الندوي، المجمع الإسلامي، الهند، الطبعة الثانية (١٩٩٢م). حيث تحدث أن سر النهوض الحضاري تتجلى في عاملين اثنين: أولهما: المنهاج المتمثل في منهج الأنبياء في الإصلاح عن خصائص الدعوة الإبراهيمية المحمدية، المتجلية في

التركيز على التوحيد، ونبذ الشرك والوثنية، وعدم الفصل بين الإنسان والإنسان. أما العامل الثاني: فهو شخصية الداعي. فتناول أبو الحسن لموضوع الملة جاء عاماً في إطار المشروع الحضاري الذي يتبناه، دون الحديث عن تعريف الملة ومقوماتها، وهو ما يحاول البحث بيانه.

- **معالم التزكية النفسية في القرآن من خلال قصة إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: أحمد الطيبي، مجلة الشهاب، المجلد (٠٧)، العدد (٠٢) (٢٠٢١م). حيث حاول الكاتب تبيّن معالم التزكية النفسية في القرآن من خلال قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ متبعاً في توضيح ذلك منهج الاستقراء والتحليل، وهذه المعالم هي:

أولاً: التأمل في الأكوان. وثانياً: مناظرة من يريد زعزعة الأركان. وثالثاً: التربية على الصبر والإحسان. ورابعاً: المحافظة على قواعد البنيان. لكن الباحث لم يقدم تعريفاً للملة سواء في المعاجم أو كمفهوم قرآني، وهو ما يحاول هذا البحث تداركه.

- **حجية الحوار الإقناعي في القرآن الكريم، حوارات سيدنا إبراهيم خليل الرحمن** عَلَيْهِ السَّلَامُ **أنموذجاً**: حمزة حسن سليمان صالح، مجلة التواصلية، المجلد (٥)، العدد (٢). وضّح الكاتب حجية الحوار في القرآن الكريم من حيث الأفكار والمبادئ التي تتناول الحوار بصورة شاملة متكاملة، مع ضرب الأمثلة من قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في حواره مع المخالفين لملته.

- **ملة إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **في القرآن الكريم**: قاسم عدنان صالح، منشورات مجلة الجامعة العراقية، العدد (٥٥) (ج٢). بدأ الباحث بحثه بتعريف الملة عند اللغويين، ثم استعرض الآيات التي أضاف الله عَزَّوَجَلَّ فيها الملة إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والآيات التي وقعت فيها كلمة «الآباء» بين الملة وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مبيناً سبب نزول كل آية ومناسبتها، وتفسيرها، وموقع الملة الإعرابي.

لكن الباحث لم يبحث في تعريف ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كمصطلح قائم بذاته، ولم يذكر المقوّمات التي بُنِيَت عليها ملة إبراهيم. وهو ما يحاول هذا البحث إضافته.

- **ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين، وأساليب الطغاة في تمييعها وصرف الدعاة عنها**: عاصم أحمد المقدسي، وهو من الغلاة المنحرفين عن منهج أهل السنة والجماعة، ويقع الكتاب في مقدمة وأربعة فصول، حاول من خلاله الكاتب تقرير مسألة البراءة من الشرك والكفر وأهلهما، حيث جعل موالاة الكفار على كل حال وعلى أي وجه كفراً مخرجاً من الملة، بما يخالف ما قرره علماء أهل السنة والجماعة. والهدف من الكتاب تهييج الشباب ضد ولاة الأمر، وقد تصدى لكتاب المقدسي مفكرون وعلماء دين وقفوا على الأغلاط التي جاءت فيه[1].

وهكذا فالملاحظ في الدراسات السابقة أنها لم تعط أهمية لتحديد مفهوم ملة إبراهيم، وكأنه معلوم عند الخاصة والعامة، والأمر غير ذلك، حيث يحتاج مفهوم ملة إبراهيم إلى توضيح وتبيين.

ومما يلاحظ أيضاً أن كل دراسة ركزت على جانب واحد في دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دون غيره، كالتزكية، والحوار، والإقناع...

لذلك جاء هذا البحث ليستدرك ما فات الدراسات السابقة، ويضيف عليها ما يفتح الله به على الباحث.

سادساً: منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي، القائم على تتبع الآيات التي ذُكرت فيها ملة إبراهيم، وكلام المفسرين فيها. ثم المنهج التحليلي من أجل تحليل الآيات واستنباط المقومات - التي هي موضوع الدراسة - منها.

(١) ومن هذه الكتب «مذكرة الرد على كتب مشبوهة»، أ.د. محمد بن عمر بازمول.

سابعاً: خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

- **المقدمة**: تناولت الهدف العام من البحث، ومشكلته، وأهدافه، وأهمية الموضوع، والدراسات السابقة فيه، ومنهج البحث، ثم خطته.
- **التمهيد**: مفهوم مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: تعريف المقومات.

المطلب الثاني: تعريف ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- **المبحث الأول**: **التصديق بأصول الإيمان**: وتحت هذا المبحث خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان بالله.

المطلب الثاني: الإيمان بالملائكة.

المطلب الثالث: الإيمان بالكتب السماوية والرسل.

المطلب الرابع: الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الخامس: الإيمان بالقضاء والقدر.

- **المبحث الثاني**: **التفكير المنهجي والاستدلال المنطقي**: وتحت هذا المبحث أربعة مطالب:

المطلب الأول: النصيحة المباشرة.

المطلب الثاني: المسلك العقلي باستخدام المنطق العقلي والإبداع الفكري.

المطلب الثالث: المسلك العلمي باستخدام البرهان العلمي.

المطلب الرابع: المسلك العملي باستخدام البرهان العملي.

- **المبحث الثالث**: **تحقيق التزكية**: وضمنه مطلبان:

المطلب الأول: تزكية النفس في الإسلام.

المطلب الثاني: تزكية النفس في ملة إبراهيم.

الخاتمة: تضمنت نتائج البحث.

تمهيد

تعريف مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

المطلب الأول: تعريف المقومات:

تدور معاني مادة «قوم» حول الاستقامة وعماد الشيء. فالقيم بمعنى المستقيم الذي لا عوج فيه.

قال الأزهري: «القيم: الاستقامة. ديناً قيماً: مستقيماً. ويقال: رمح قويم، وقوام قويم، أي: مستقيم»(١).

وقوام الشيء بكسر القاف، ما يقوم به الشيء. قال الفراهيدي: «وَقَيِّمُ القَوْم: من يسوس أمرهم ويُقَوِّمُهُمْ»(٢).

وقال الجوهري: «قوام الأمر بالكسر: نظامه وعِماده. يقال: فلانٌ قِوامُ أهل بيته وقِيامُ أهل بيته، وهو الذي يقيم شأنهم»(٣).

المطلب الثاني: تعريف ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١. الملة في القرآن الكريم:

وردت مادة «ملل» في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً، منها خمسة عشر موضعاً بلفظ الملة، والباقي موزع على اشتقاقين اثنين هما: الإمْلَالُ والمَلِيُّ. تعرفهم بسيماهم.

ففي السور المكية وردت مادة «ملل» تسع مرات في سبع سور مرتبة وفق ترتيب النزول كالتالي:

---

(١) تهذيب اللغة، مادة (قوم) (٩/٢٦٧).
(٢) العين، باب القاف والميم (٥/٢٣٣).
(٣) الصحاح، مادة (قوم) (٥/٢٠١٨).

السورة	رقمها	الآية	رقمها
ص	٣٧	﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾	٧
الأعراف	٣٨	﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾	٨٨
الأعراف	٣٨	﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾	٨٩
يوسف	٥٢	﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾	٣٧
يوسف	٥٢	﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾	٣٨
الأنعام	٥٤	﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	١٦١
الكهف	٦٨	﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾	٢٠
النحل	٦٩	﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	١٢٣
إبراهيم	٧١	﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾	١٣

أما في السور المدنية، فقد وردت مادة «ملل» ست مرات في أربع سور كالآتي:

السورة	رقمها	الآية	رقمها
البقرة	٢	﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾	١٢٠
البقرة	٢	﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾	١٣٠
البقرة	٢	﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	١٣٥
آل عمران	٣	﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	٩٥
النساء	٦	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾	١٢٥
الحج	١٨	﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾	٧٨

الملاحظ أنّ حضور مصطلح الملّة على مستوى الجذر في القرآن الكريم معتبر، خصوصاً إذا قارنّاه بمصطلحات ذات أهمية في الإسلام كمصطلح الحج الذي ورد في القرآن الكريم سبعة عشر مرة، والصيام الذي ورد أربعة عشر مرة.

ولا شك أن هذا الحضور يدلّ على كونه حاملاً لمفهوم أساسي في حياة الأمة.

مادة «ملل» كان ورود أحد مشتقاتها وهو الإملال في سورة البقرة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، لكن ورود مصطلح الملة أول مرة بالمعنى الاصطلاحي كان في سورة «ص»، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، فالمشركون عجبوا من دعوة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المتمثلة في التوحيد وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو أمر لم يعتادوا عليه ولم يسمعوا به من قبل، ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥] وحتى النصارى الذين كانوا في مكة يجعلون مع الله إلهاً آخر، لذلك قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]. فكانَ ورود المصطلح مرتبطاً بما اعتاده الناس ولازموه من أمور الاعتقاد والعبادة.

٢. تعريف الملة في اللغة:

المِلَّة في اللغة من مَلَّ يَمِلُّ، وتَمَلَّلَ وامتَلَّ دخل في الملّة[١]. وامْتَلَّ الرَّجُلُ: أخَذَ في مِلَّةِ الإسلام. وهو يَمِلُّ مِلَّتَه[٢].

قال الزجاج: «ومعنى ملتهم في اللغة: سنتهم وطريقتهم»[٣].

وقال الصاحب بن عباد: «ومِلَّةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: الأمْرُ الذي أوْضَحَه، والطَّرِيْقَةُ، والسُّنَّةُ»[٤].

(١) المحكم والمحيط (٣٧٩/١٠).
(٢) المحيط في اللغة، باب اللام والميم (٤٥٣/٢).
(٣) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (٢٠٢/١).
(٤) المحيط في اللغة، ملّ (٤٥٣/٢).

وقال الزمخشري: «الملّة الطريقة المسلوكة، ومنها: مِلّة إبراهيم خير المِلَل»(١).

فالملة حسب تعبير الزمخشري عبارة عن طريقة مسلوكة وسنن متبعة يلتزمها الناس ويداومون عليها مدة طويلة. ومنها سنن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، التي سَنُّوها وشرعوها لأتباعهم.

ولذلك نستنتج أن الملة في اللغة هي الطريقة المُتَّبَعَة والمُلتزَم بها زمناً ممتداً.

قال الخليل الفراهيدي: «ومِلّةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الأمرُ الّذي أوضحه للنّاس»(٢). فما أوضحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس يلزم اتّباعه وملازمته؛ ليحصل الانتفاع بذلك في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال ابن عاشور: «والاتّباع: اقتفاء السير على سَير آخر. وهو هنا مستعار للعمل بمثل عمل الآخر»(٣). أي اقتد بسيرته وطريقته التي داوم عليها وكررها من الإقرار بتوحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق به، فكانت طريقة مسلوكة، وسُنّة له ولأتباعه، أمر بها بنيه من بعده وأوصاهم بها وتناقلوها جيلاً بعد جيل.

٣. تعريف ملة إبراهيم اصطلاحاً:

أ. عند أصحاب المعاجم:

عرّف الراغب (المتوفى: ٥٠٢هـ): «المِلَّة كالدّين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصّلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملّة لا تضاف إلّا إلى النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي تسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨].

(١) أساس البلاغة، ملل (٢/٢٢٨).
(٢) العين، باب اللّام والميم (ل م، م ل) مستعملان (٨/٣٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/٣١٨).

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها، لا يقال: ملّة الله، ولا يقال: ملّتي وملّة زيد كما يقال: دين الله ودين زيد، ولا يقال: الصلاة ملّة الله. وأصل الملّة من: أمللت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وتقال المِلَّة اعتباراً بالشيء الذي شرعه الله. والدّين يقال اعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة»[1].

فالملاحظ أن الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ استحضر الأصل اللغوي لمادة «ملل» ووظفه في التعريف، وحاول أن يبرز أهم الفروق بين المِلَّة والدّين لتبيين خصائص كل واحد منهما.

أما الإمام الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ) أضاف خاصية جديدة للملّة تتعلق بالاجتماع على هيئة معينة، فقال: «لما كان نوع الإنسان محتاجاً إلى اجتماع مع آخر من بني جنسه في إقامة معاشه، والاستعداد لمعاده؛ وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعاون حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له؛ فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملة»[2].

وابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) أشار إلى الاختلاف الحاصل في تعريف الملّة، هل هي الدّين كلّه أم هي أصول الدّين خاصة؟ فقال: «المِلَّةُ: الدِّينُ، كَمِلَّةِ الإسلامِ، والنَّصْرَانِيَّةِ، واليهوُدِيَّةِ. وَقِيلَ: هِيَ مُعْظَمُ الدِّينِ، وجُمْلَةُ مَا يَجيءُ بِهِ الرُّسُل»[3].

وانتبه الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) إلى التداخل الحاصل بين الدّين والملّة، وأن بينهما وجوه اتفاق ووجوه اختلاف، لكنهما في النهاية يدخلان في مسمى الشريعة، فقال: «الدِّين والملة: متحدات بالذات، ومختلفان بالاعتبار؛ فإن الشريعة من حيث إنها

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة (ملل) (ص٧٧٣).
(٢) الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٣٨/١).
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (ملل) (٣٦٠/٤، ٣٦١).

تطاع تسمى: ديناً، ومن حيث إنها تُجمع تسمى: ملّة، ومن حيث إنها يُرجَع إليها تسمى: مذهباً، وقيل: الفرق بين الدّين والملّة والمذهب: أن الدّين منسوب إلى الله تعالى، والملّة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد»(١).

لكن الإمام الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) أدرك التداخل الحاصل بين الدّين والملّة، فقال: «وقد يتجوز فيه - أي الدّين - فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملّة، وعليه قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقد يتجوز فيه أيضاً فيطلق على الفروع خاصة، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، أي: الملّة القيمة، يعني فروع هذه الأصول»(٢).

فمن خلال التعاريف السابقة، يمكن ملاحظة ما يلي:

أولاً: مفهوم الملة عند العلماء انتقل من العموم إلى الخصوص، وأصبح الحديث عن الملة باعتبارها الأصول الكبرى كما ذكر الكفوي، وجملة ما يجيء به الرسل، لكن قد تطلق على الفروع كذلك.

ثانياً: أصبح الحديث عن ملة الحق الإسلام، وعن الملل الباطلة، كما هو منطوق القرآن الكريم، مع إبراز الخصائص والسمات المميزة لها عن غيرها من المصطلحات التي تتقاطع معها في المفهوم كالدّين والشريعة.

ثالثاً: اقتصرت التعاريف على إبراز خصائص الملّة والفرق بينها وبين الدّين، دون الإشارة إلى ما يترتب على الملّة من عمل.

ب. عند المفسرين:

تعددت تعاريف المفسرين لمصطلح الملة، فقال ابن جرير: «ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة»(٣). وقال البغوي: «﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أَيْ يَتْرُكُ

(١) التعريفات للجرجاني (ص١٠٦).
(٢) الكليات للكفوي (ص٤٤٣).
(٣) جامع البيان (٨٩/٣).

دِينَهُ وَشَرِيعَتَهُ»[1]. أما ابن عطية فعرفها بقوله: «الشريعة والطريقة»[2]. وقال الشنقيطي: «بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3].

فالملاحظ أن المفسرين متفقون على أن الملة المقصود بها الدّين والشريعة الذي بُعث بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وانطلاقاً من هذه المعاني الجزئية يمكن استخلاص المعنى الكلي الذي يجمعها ويشكل تعريفاً جامعاً للملة يحدد سماتها ودلالاتها كما يلي:

المِلَّة هي مجموع العقائد والمبادئ والأعمال، سواء كانت حقاً أم باطلاً، تتلقاها طائفة من الناس ويدأبون على التزامها والعمل بها حتى تكون طريقة لهم في إقامة معاشهم والاستعداد لمعادهم.

وقريب من هذا التعريف ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسيره، حيث عرّف الملّة بقوله: «وَالْمِلَّةُ، بِكَسْرِ الْمِيمِ، الدِّينُ وَالشَّرِيعَةُ، وَهِيَ مَجْمُوعُ عَقَائِدَ وَأَعْمَالٍ يَلْتَزِمُهَا طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ يَتَّفِقُونَ عَلَيْهَا وَتَكُونُ جَامِعَةً لَهُمْ كَطَرِيقَةٍ يَتَّبِعُونَهَا»[4].

وقد وردت الملة في القرآن الكريم مضافة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثمانية مواضع من أصل خمسة عشر موضعاً وردت فيها الملة مضافة.

وانطلاقاً من التعريف الاصطلاحي العام للملة، فإن: ملة إبراهيم هي مجموع العقائد والمبادئ والأعمال التي تلقاها إبراهيم من ربّه، دأب على التزامها والعمل بها فكانت طريقة له، وأوصى بها مَنْ بعده.

وبناء على التعريفات السابقة يمكن القول: إن مقوّمات ملة إبراهيم يُقصد بها العناصر الأساسية التي تَقوم عليها الملة، وتجعلها مستقيمة، كما ارتضاها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده.

(١) معالم التنزيل (١/١٥٢).
(٢) المحرر الوجيز (١/٢١٢).
(٣) أضواء البيان (١/١٠٢).
(٤) التحرير والتنوير (١/٦٩٣).

ويمكن القول كذلك أن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قامت على «الشمولية»؛ لأن الحديث عن الملة هو حديث عن الدين ابتداء من العقيدة مروراً بالشريعة وانتهاء بالأخلاق والسلوك والآداب العامة.

حيث وضعت ملة إبراهيم الحجر الأساس لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في عقيدته، وفي طريقة تفكيره، واستدلاله ومناظراته مع الآخر، وما ينبغي أن يكون عليه في خضوعه واستسلامه لله، وفي آدابه وتعامله مع الناس بمختلف أصنافهم مسلمين وغير مسلمين.

هذه الشمولية هي أحد الأسباب التي أعطت لملة إبراهيم تلك القيمة في أن تكون أحسن الدّين، بل وأن تكون الدّين القيّم الذي ارتضاه الله لهذه الأمة المحمدية وألزمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتباعها.

وإبراز هذه الشمولية يتأتّى من خلال الحديث عن مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم، لذلك أتى ذكر هذه المقومات على شكل مباحث، حاول البحث تحليلها والاستدلال عليها، من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف.

المبحث الأول
الإيمان بأصول الإيمان

احتلت أصول الإيمان المساحة الكبيرة في دعوة إبراهيم، وهذا ليس أمراً خاصاً به، بل هو عام في جميع الرسالات الإلهية، فتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به، من أجله خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد دلّت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف على أن الإيمان يقوم على أصول ستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المشهور: «أن جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سأل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ»[1].

فانتصب إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لإقامة أصول الإيمان، وحاور وناظر أباه وقومه وأقام الحجج والبراهين من أجل ذلك، حتى وُسمت ملته عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بالحنيفية؛ لأنه مال عن الشرك وعبادة الأوثان التي كانت منتشرة في زمانه إلى دين الله وهو الإسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. وقال عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، الحديث (١).

وارتبط اسمه عليه السلام بالتوحيد وعدم الشرك. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

المطلب الأول: الإيمان بالله:

إن إبراهيم عليه السلام دعا بنداء الفطرة الذي تقره النفوس، وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبودية، فحاور عبدة الكواكب الذين انتكست فطرتهم، وجحدوا نعم الله عليه قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قال الطبري: «إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت، لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع. ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحبُّ من التوحيد»(١).

والملاحظ أن قوم إبراهيم لم ينازعوه في إثبات وجود الله، فهذا كان معلوماً عندهم، وإنما كانت المنازعة في جعل آلهة أخرى في العبادة من كواكب وأصنام.

ثم يؤكد إبراهيم لقومه نسبة الربوبية لله تعالى ويذكر أن رب السماوات والأرض هو رب الناس كذلك، فقال لهم: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقد كان إبراهيم عليه السلام شديد الإخلاص لله تعالى، ويظهر ذلك جلياً في دعائه عند بناء البيت، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ففي الآية وصفٌ لحال إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، وخوفهما من عدم قبول الله لعملهما، وهذا قمة الإخلاص الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل.

(١) جامع البيان (٤٨٧/١١).

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُثبت لله تعالى الأسماء والصفات وينادیه بها، كما حكى الله عنه في الكثير من الآيات.

فمن أسماء الله تعالى التي ذكرها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

اسم الله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

اسم الرب: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

اسما العزيز والحكيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ومن صفات الله التي أوردها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الرزق، فقال لقومه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

الخلق، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

الإماتة والإحياء: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١].

المغفرة، حيث قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وترك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذريته أساس التوحيد، وهي كلمة لا إله إلا الله، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

قال الطبري: «وهو قول: لا إله إلا الله، كلمة باقية في عقبه، وهم ذريّته، فلم يزل في ذريّته من يقول ذلك من بعده»(١).

فدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت إلى الإسلام وإخلاص الدين لله، ولهذا أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نتبع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال جل شأنه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

(١) جامع البيان (٢١/٥٨٩).

المطلب الثاني: الإيمان بالملائكة:

أوجب الله عزوجل علينا الإيمان بالملائكة، وجعل الكفر بهم ضلالاً. فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد عرض القرآن الكريم حوار إبراهيم مع الملائكة في ثلاثة مواطن، وهي سور هود، والحجر، والذاريات.

وفي هذه الحوارات بشرته الملائكة بإسحاق ويعقوب: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ * قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦]. فعلم عليه السلام أنهم رسل الله وملائكته؛ لأنه كان مؤمناً بهم وبوجودهم، فأثبت أنهم مرسلون من عند الله حيث قال: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧].

قال ابن عطية: «على أن قول إبراهيم عليه السلام ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وكونهم أيضاً قد بشروه يقتضي أنه قد كان عرف أنهم ملائكة حين قال ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾»[1].

المطلب الثالث: الإيمان بالكتب السماوية والرسل:

إن الإيمان بالكتب السماوية والرسل أصل من أصول الإيمان الستة، يجب الإيمان بهما ما علمنا منها وهي: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى[2]، وما لم نعلمها فنؤمن بها على وجه الإجمال.

(١) المحرر الوجيز (٣/٣٦٦).

(٢) حكى السمرقندي الخلاف في تحديد صحف موسى، فقال: «قال بعضهم: ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦]، يعني: التوراة، وقال بعضهم: هو كتاب أنزل عليه قبل التوراة». بحر العلوم (٣/٣٦٥).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فالآية دعوة صريحة للمؤمنين من أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأهل الكتاب الذين كانوا يدّعون اتباع ملة إبراهيم لكنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، «وذلك أنهم كانوا صنفين: أهل توراة مصدّقين بها وبمن جاء بها، وهم مكذّبون بالإنجيل والقرآن وعيسى ومحمد صلوات الله عليهما، وصنف أهل إنجيل وهم مصدّقون به وبالتوراة وسائر الكتب، مكذّبون بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والفرقان»[1]، دعاهم أن يؤمنوا بالله وبرسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وبالقرآن، إن كانوا حقاً متّبعين لملة إبراهيم؛ لأن الإيمان الحقيقي يقتضي الإيمان بجميع الكتب والرسل، والكفر ببعضها هو كفر بجميع ما أنزل الله من الكتب وبجميع ما أرسله من الرسل.

قال الإمام الطبري: «ومن يكفر بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيجحد نبوّته، فهو يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن جحود الشيء من ذلك بمعنى جحوده جميعه؛ وذلك لأنه لا يصحّ إيمان أحد من الخلق إلا بالإيمان بما أمره الله بالإيمان به، والكفر بشيء منه كفر بجميعه»[2].

والقرآن صريح في وجوب الإيمان بالكتب السماوية ورسل الله دون تفريق بين الأنبياء. قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

(١) جامع البيان (٣١٣/٩).
(٢) نفسه.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ففي الآيتين أمرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين بالإيمان بجميع الكتب السماوية والشرائع المنزلة على الرسل والأنبياء، ويفهم منهما دعوة المؤمنين إلى الابتعاد عن ملة اليهود والنصارى المخالفة للإسلام، ذلك أنهم كذبوا بنبوة الحبيب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن يتبعوا ملة إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، التي كانت تعترف بالكتب السماوية وتقر بالرسل والأنبياء حيث قال الله قبل هذه الآية: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال البقاعي: «ساقه الله تعالى في جواب من كأنهم قالوا: ما نقول حتى نكون إياها، فقال: ﴿قُولُوٓاْ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الذي له جميع صفات الكمال»(١).

وقد أخذ الله الميثاق من كل النبيئين أن يصدق بعضهم بعضاً، ويؤمن بعضهم ببعض كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلى عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرَنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته»(٢).

(١) نظم الدرر (٢/١٨٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٦٧).

فملة إبراهيم لا تعترف بالتفريق بين الأنبياء؛ لأنها الإسلام الذي لا يُفرق بين رسل الله، فعلى المؤمنين اتباع هذه الملة والإيمان بالرسل وما أنزل الله عليهم دون تفريق بينهم كما تزعم اليهود والنصارى.

المطلب الرابع: الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وقد جاء راسخاً في ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما هو راسخ في جميع الرسالات الإلهية.

ففي دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في البيت الحرام قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ومن دعائه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ومنه أيضاً: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ففي الآيات إثبات يوم القيامة، وأنه اليوم الذي يحاسب فيه الله العباد فيَمُنّ على من يشاء برحمته ومغفرته.

وسأل إبراهيم ربه الجنة في الآخرة فقال: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

ووصفها لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة الإسراء والمعراج. فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ»[1].

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، الحديث (٣٤٦٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وقد ثبت أيضاً في قصة إبراهيم قضية البعث، فأكد عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الركن في محاورته للنمرود، حيث قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كما أثبت عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه اتصاف الله عَزَّوَجَلَّ بصفة الإحياء والإماتة، فقال: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١].

وقد اشتملت صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قضية البعث، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ * وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٧]. فكان الإيمان بالبعث وباليوم الآخر أصلاً في دعوة إبراهيم وملته، فالعدل كله في مجازاة الخلائق كل حسب عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

المطلب الخامس: الإيمان بالقضاء والقدر:

في ختام هذا المبحث نقف مع آخر أصل من أصول الإيمان وهو الإيمان بالقضاء والقدر، وقد وردت الإشارة إلى بعض مسائل القضاء والقدر في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن هذه المسائل المشيئة وهي مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر، فما من شيء في الكون إلا وهو تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وبذلك دعا جميع الرسل وآمن المؤمنون.

قال ابن قيم الجوزية: «وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه وأدلة العقول والعيان وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[1].

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية (ص٤٣).

والمشيئة وردت في كثير من النصوص، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال إمام الحنفاء لقومه: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فالخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد دعوته لقومه، هددوه بآلهتهم أن تمسه بسوء، ولكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيّن لهم أن النفع والضر بقضاء الله وقدره، وأنه لا يخاف من آلهتهم لأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً. قال الشوكاني: «وَالْمَعْنَى: عَلَى نَفْيِ حُصُولِ ضَرَرٍ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَإِثْبَاتُ الضَّرَرِ وَالنَّفْعِ للهِ سُبْحَانَهُ وَصُدُورِهِمَا حَسْبَ مَشِيئَتِهِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَيْ إِنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا شَاءَ الْخَيْرَ كَانَ حَسَبَ مَشِيئَتِهِ، وَإِذَا شَاءَ إِنْزَالَ شَرٍّ بِي كَانَ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[1].

وفي رؤيا الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذبح ولده، أخبر ابنه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فرد عليه الابن البار عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يفعل ما أمر به، ثم علق صبره على ذلك بمشيئة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ومن مسائل القضاء والقدر الهداية والضلال، قال عنها ابن قيم الجوزية: «هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه»[2].

(١) فتح القدير (٢/١٥٣).
(٢) شفاء العليل (ص٦٥).

وقد ذكر الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الهداية في حديثه مع قومه حين عرفهم بالله تعالى وبين لهم أن له فضل الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق والهداية، فقال جَلَّوَعَلَا على لسانه: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ**﴾ [الشعراء: ٧٨]، أي أنه بعد خلقه له، يسَّر له كل ما هو له مصلحة في حياته، وما يستقيم عليه عيشه. فالخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يعترف بفضل الله عَزَّوَجَلَّ بهدايته لما استقام عليه حاله في الدنيا، فهو الهادي إلى جميع منافع الدنيا والدين، فكل ما يجري للخلق هو على ما قدر له من خير الدنيا والآخرة.

قال البيضاوي: «لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد، كما قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ [الأعلى: ٣]، هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها»(١).

وقد تناولت صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مسألة الهداية، كما ورد ذلك في سورة الأعلى حيث جاء فيها: ﴿**وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ [الأعلى: ٣].

قال مجاهد: «قدر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة». وعنه قال: «هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها»(٢).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٤١/٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٠).

المبحث الثاني
التفكير المنهجي والاستدلال المنطقي

لقد أنعم الله عَزَّوَجَلَّ على سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحجة الدامغة، التي حاج بها أباه وقومه والملك النمرود، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فسلك عَلَيْهِ السَّلَامُ طرائق في الاستدلال والتفكير في مشواره الدعوي مع من دعاهم للإسلام، ما يدل على ذكائه وقدراته الفكرية الكبيرة التي حري بكل داعٍ إلى الله أن يستفيد منها في التفكير والتخطيط والإبداع والخطاب لدعوة الناس إلى الله وإقناعهم بالحق.

وقد استخدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مسالك متعددة في دعوته يمكن إجمالها في الآتي:

المطلب الأول: النصيحة المباشرة:

بدأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده، وبيّن لهم أن ما يعبدون من دون الله عاجزون لا يملكون شيئاً، وأن الله هو الذي بيده خزائن كل شيء، ولفت انتباههم إلى حال من سبقهم من الأمم المكذبة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٨].

ومما يلاحظ في هذه المرحلة:

أولاً: استغلاله عَلَيْهِ السَّلَامُ لأسلوب الترغيب، حيث انتبه إبراهيم لحاجة القوم من عبادة الأصنام وهو ابتغاء الرزق، فأرشدهم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الرزق بيد الله، بيده مفاتيح السماوات والأرض.

ثانياً: وتوظيفه عليه السلام للجانب التاريخي وحال الأقوام السابقين الذين كذبوا الرسل.

وقال الحق سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا * إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا * وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

قال الزمخشريّ: «ثنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ، فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه»[1].

وقال أبو السعود: «ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل؛ لئلا يركب متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكلية، عن محجة الرشاد»[2]، فظهر حسن أدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه بقوله: «يا أبت»، وهو لفظ يدل على عاطفة كبيرة يُكنها إبراهيم عليه السلام لوالده، واحتج عليه بالأدلة المنطقية التي لا يصدها عاقل، ولا يُنكرها إلا جاحد، فكيف يُعبَد من في نفسه العجز، فلا يُبصر، ولا يسمع، ولا ينفع ولا يضر؟ وحتى مع مكابرة الأب وعناده وتهديده، أبى إبراهيم عليه السلام إلاّ أن يُشفق عليه ويُكلمه بلطف ولين، ويدعو له بالمغفرة، وكذلك الولد البار يفعل مع والديه.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (١٩/٣).
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٦٧/٥).

المطلب الثاني: المسلك العقلي باستخدام المنطق العقلي والإبداع الفكري:

نوّع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أساليب دعوته حسب ما يقتضيه المقام، ومن ضمن ما وظفه عَلَيْهِ السَّلَامُ في أساليب التفكير والاستدلال المنهج المنطقي، وقد أبدع في ذلك أيما إبداع.

استخدم هذا المنهج مع أبيه ومع الملك النمرود.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا * إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [البقرة: ٤١ - ٤٣].

فاستخدم إبراهيم مع أبيه المنطق العقلي، إذ كيف يعقل أن يُعبد من لا قدرة له على الحركة ولا يملك من الحواس ما يجعله يشعر بمن حوله، فلا سمع ولا بصر ولا قدرة.

من كانت هذه حاله هل يستحق أن يُعبد؟ قال أبو السعود: «نبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة وغرضٍ صحيح، والشيءُ لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضرِّ مطيقاً بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكِناً لاستنكف العقلُ السليمُ عن عبادته، وإن كان أشرفَ الخلائق لما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقيادِ للقدرة القاهرةِ الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الإحياءِ عينٌ ولا أثرٌ»[1].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفي هذا الموقف تظهر براعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في التفكير والاستدلال باستخدام الأدلة التي لا يمكن ردها، فأول ما استدل به إبراهيم على وجود الله تعالى معجزة الإحياء والإماتة، فردّ الملك بأنه يحيي ويميت أيضاً، يريد يعفو عن القاتل ويقتل.

(١) المصدر نفسه.

أمام هذا الجواب ترك إبراهيم الخوض مع الملك في هذا الجدال العقيم، ليس عن هزيمة، وإنما عن إبداع في التفكير فجاءه بواقعة لا يستطيع أن يردها، وهي أن يغيّر مسار الشمس الذي حدده الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أنه: «كان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة»(١)، فكانت النتيجة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

المطلب الثالث: المسلك العلمي باستخدام البرهان العلمي:

مما اعتمده إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته بهداية من الله عَزَّوَجَلَّ استخدام المنهج العلمي القائم على إعطاء فرضيات، ثم اختبار مدى صحتها بالمنطق العقلي للوصول إلى الحق.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

فساير إبراهيم قومه على ما هم فيه من معتقدات بخصوص الكواكب، وافترض معهم أنها رب، ثم تلتها مرحلة التحقق التي كشفت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الفرضيات غير منطقية، وبعيدة كل البعد عن المنطق والعقل، فكيف للكواكب وهي رب أن تغيب؟ الرب لا ينبغي له أن يغيب(٢).

(١) الكشاف (٣٠٦/١).

(٢) وقال ابن كثير في تفسيره: «اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، والحق أن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً =

عندها يوجه الخطاب لقومه في أدب ولباقة: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٧٨ - ٧٩].

المطلب الرابع: المسلك العملي باستخدام البرهان العملي:

في تحدّ جديد بين إبراهيم وقومه استخدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسلوباً مبتكراً جديداً اعتمد فيه على التطبيق العملي المُفضي إلى تأكيد الحقائق التي لا يمكن لعقل سوي أن يردها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ - ٦٧].

وفي موضع آخر قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٨٤ - ٩٣].

لقد اتضح لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن دعوته لقومه لابد أن ترتقي إلى مستوى أعلى من الحوار، فكانت خطته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما حكى الله في الآيات تقتضي أن يؤكد لقومه بطلان ما يعتقدون في آلهتهم أنها تنفع وتضر، دون أن يتعرض لقومه بالشتم، أو يؤذ أحداً منهم.

= لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ناظراً في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا شك ولا ريب». تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٢، ٣٩٣).

فحطم أصنامهم التي صنعوها بأيديهم؛ ليؤكد لهم أنها لا تنفع ولا تضر، وبالفعل تحقق لإبراهيم عليه السلام ما أراد ونطق القوم بكلمة الحق: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

أمام هذا الضعف الذي أصاب قومه، استغل إبراهيم الموقف، فقال مهاجماً في عزة وقوة: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

قال الإمام القرطبي: «أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِالْمُحَاجَّةِ بِاللِّسَانِ، بَلْ كَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ فِعْلَ وَاثِقٍ باللهِ تَعَالَى، مُوَطِّنٍ نَفْسَهُ عَلَى مُقَاسَاةِ الْمَكْرُوهِ فِي الذَّبِّ عَنِ الدِّينِ»[1].

وهكذا تعلمنا قصة إبراهيم فن المناظرة مع الآخر وكيفية محاورته، وطريقة استخدام التفكير المنهجي والاستدلال المنطقي بالحجة العلمية والمنطق العقلي والبرهان العملي.

(١) الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي (٢٩٧/١١).

المبحث الثالث
تحقيق التزكية(١)

تُعدّ التزكية من المفاهيم الأساسية في الإسلام، ويتخذ هذا المفهوم موقعاً مهماً ضمن منظومة المفاهيم القرآنية.

فالتزكية موضوعها الإنسان الذي استخلفه الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، من خلال ترقيته وتهذيبه للوصول إلى مستوى الإصلاح الفردي، ومنه الانتقال إلى إصلاح الجماعة والأمة.

والقرآن الكريم من مقاصده الأساسية الدعوةُ إلى تزكية النفس، فلا فوز ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بتزكية النفس، كما قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ورسالاتُ الأنبياء جميعاً كان من مقاصدها الدعوةُ إلى التزكية، ولهذا رأينا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لفرعون حين أُرْسِلَ إليه من ربه: ﴿**فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ**﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

وكانت التزكية من أصول رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء ذلك في دعوة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للأمة المسلمة الموعودة، قال تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩].

فلا معنى للإسلام إلا بالتوحيد وتزكية الإنسان، فالإنسان هو المخاطب بالوحي، يؤمن بوحدانية الله ويقر بالعبودية له ويوظف طاقته العلمية والعملية في إعمار

(١) قال ابن الأثير: «وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث». النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (زكا). وقال الراغب في تعريف التزكية: «وهو أن يتحرّى الإنسان ما فيه تطهيره». المفردات، مادة (زكا). وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى: ١٤]: «طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله». تفسير القرآن العظيم (٣٨١/٨).
فالتزكية: تطهير النفس من الرذائل والدنايا، وتحليتها بالفضائل ومحاسن الطبائع، ومكارم الأخلاق.

الكون وبناء الحضارة وترقية الحياة البشرية على الأرض، ولا يتم دون التربية الهادفة التي تحول ذلك كله إلى سلوك وممارسة، وهو بذلك يحقق مقصد التزكية في التطهير والتنمية.

فكانت دعوة الرّسل قائمة على هذا الأصل الذي هو التزكية، وقام الأنبياء بوصفهم القدوة الصالحة العملية، بمهمة تطهير وتزكية المؤمنين، كما أمرهم الله بذلك.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

يقول ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ مُسَلَّمٌ إِلَى الرُّسُلِ، وَإِنَّمَا بَعَثَهُمُ اللهُ لِهَذِهِ التَّزْكِيَةِ وَوَلَّاهُمْ إِيَّاهَا، وَجَعَلَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ دَعْوَةً، وَتَعْلِيماً وَبَيَاناً وَإِرْشَاداً، لَا خَلْقاً وَلَا إِلْهَاماً، فَهُمُ الْمَبْعُوثُونَ لِعِلَاجِ نُفُوسِ الْأُمَمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وَتَزْكِيَةُ النُّفُوسِ أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ وَأَشَدُّ.

فَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْخَلْوَةِ الَّتِي لَمْ يَجِئْ بِهَا الرُّسُلُ: فَهُوَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي عَالَجَ نَفْسَهُ بِرَأْيِهِ، وَأَيْنَ يَقَعُ رَأْيُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبِيبِ؟ فَالرُّسُلُ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَزْكِيَتِهَا وَصَلَاحِهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ، وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، وَبِمَحْضِ الِانْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ»(١).

فتزكية النفس لا تُؤتي أكلها إلا بمنهج الله الذي شرعه لعباده على لسان أنبيائه.

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٣٠٠/٢).

المطلب الأول: تزكية النفس في دعوة الأنبياء:

من اللافت للنظر أن أطول قسم في القرآن الكريم يتعلق بتزكية النفس، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [البقرة: ١ - ١٠].

فأكد الحق سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن المفلح الذي يظفر بجميع المرادات هو من زكى نفسه «أي نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذامّ الأخلاق؛ لأن كلاً ميسر لما خلق له، والدين بني على التحلية والتخلية»[1] والخسران نصيب من لم يحقق هذا الأصل.

وكان من دعاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ طلب زكاة النفس، فكان يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[2].

فتزكية النفس أصل من أصول دعوة الأنبياء، ودعامة رئيسية فيها وفي ملة إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ؛ لأن الإسلام من أهم أهدافه تحقيق التوحيد، وإقامة العمران، والتزكية لا تتحقق بدون التوحيد، ولا تبرز ولا تظهر.

(١) نظم الدرر للبقاعي (٢٢/٧٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، عن زيد ابن الأرقم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، الحديث (٢٧٢٢).

وهكذا عملت الرسالات الإلهية على التأكيد على ارتباط الفلاح بالتزكية ارتباطاً مباشراً في الدنيا والآخرة، للإشارة إلى أن الفكر المستقيم الصائب لا يكفي في ذلك إذا لم تنضمّ إليه التربية الروحية والتوجّه العملي الذي يحوّل الفكر إلى إيمان، ويُحرك الإيمان في اتجاه العمل الصالح؛ ليكون الإنسان المسلم إنسان التزكية الذي يجسد تعاليم الإسلام وقيمه السامية على أرض الواقع.

المطلب الثاني: تزكية النفس في ملة إبراهيم:

ملة إبراهيم التي مَثّلت الإسلام الحقيقي، من أصولها التي بُنيت عليها تزكية النفس، وظهر ذلك جليّاً في سيرة إبراهيم عليه السلام الذي جَسّد التزكية في أعلى درجاتها التي تَوَلَّى القرآن الكريم والحديث الشريف بيانها.

أولاً: أخلص العبادة لله تعالى ودأب على طاعته والتزام صراطه المستقيم: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣١].

ثانياً: وفّى العبودية لله، وأتمّها غاية الإتمام، فأثنى الله عزوجل عليه بقوله: ﴿**وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ**﴾ [النجم: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ**﴾ [النجم: ٣٢].

قال الإمام الطبري: «وفّى جميع شرائع الإسلام وجميع ما أُمر به من الطاعة؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عنه أنه وفّى فعمّ بالخبر عن توفيته جميع الطاعة»(١).

ثالثاً: سليم القلب من الشرك والشك ومساوئ الأخلاق، مخلص لله بالتوحيد، قال تعالى: ﴿**إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ٨٤]. قال ابن عاشور: «وقد جمع قوله: ﴿**بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ جوامع كمال النفس وهي مصدر محامد الأعمال، فكان عماد ملة

(١) جامع البيان (٢٢/٥٤٥).

إبراهيم هو المتفرّع عن قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وذلك جُماع مكارم الأخلاق، ولذلك وصف إبراهيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، فكان منزهاً عن كل خلق ذميم واعتقاد باطل»(١).

رابعاً: حنيفاً مسلماً موحداً. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. قال الإمام الطبري: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾، يعني: متبعاً أمرَ الله وطاعته، مستقيماً على محجَّة الهدى التي أمر بلزومها، ﴿مُّسْلِمًا﴾ يعني: خاشعاً لله بقلبه، متذللاً له بجوارحه، مذعناً لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه»(٢)

خامساً: مؤمن محسن. قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١١]، «يقول: كما جزينا إبراهيم على طاعته إيانا وإحسانه في الانتهاء إلى أمرنا، كذلك نجزي المحسنين»(٣).

سادساً: تحلَّى بالصدق. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]. قال الإمام الطبري: «كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب، والصدّيق هو الفعيل من الصدق»(٤).

سابعاً: كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كريماً سخياً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦].

(١) التحرير والتنوير (١٣٧/٢٣).
(٢) جامع البيان (٤٩٤/٦).
(٣) المصدر السابق (٩١/٢١).
(٤) جامع البيان (٢٠٢/١٨).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»(١).

ثامناً: عظيم الصبر. قال تعالى: ﴿**فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وإبراهيم عليه السلام من أولي العزم، فعن عطاء الخُراسانيّ أنه قال: «فاصْبِرْ كمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرّسُلِ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم»(٢).

تاسعاً: حليم أواه منيب رحيم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ**﴾ [هود: ٧٥]. قال ابن عاشور: «الـ«حليم» الموصوف بالحلم، وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى، والـ«أوّاه» أصله الذي يكثر التأوُّه، وهو قول: أوّه. وأوّه: اسم فعل نائب مناب أتوجع، وهو هنا كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس. والـ«منيب» من أناب إذا رجع، وهو مشتق من النوب وهو النزول، والمراد التّوبة من التقصير، أي محاسب نفسه على ما يَحذر منه. وحقيقة الإنابة: الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه»(٣).

ولقد بلغت الرحمة بإبراهيم أن يجادل ملائكة الله تعالى حتى لا يعاقبوا قوم لوط على عدوانهم وكفرهم.

قال الزمخشري: «وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»(٤).

فقد كان عليه الصلاة والسلام نِعم الأب رحمة وشفقة ورعاية بذريته، وامتن الله على هذه الأمة بأبوّة الخليل عليه السلام فقال تعالى: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ**﴾ [يوسف: ٧]، الحديث (٣٣٩٠).

(٢) جامع البيان (١٤٥/٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٢٤/١٢).

(٤) الكشاف (٤١٢/٢).

عاشراً: التودد في الخطاب حتى مع المخالفين، فأثناء محاورة إبراهيم لأبيه ناداه بأجمل عبارة وألطف كلام مستحضراً في ذلك مقام الأبوة، وبالرغم من معاندة أبيه وإصراره على الشرك يقول له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. قال الزمخشري: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقل وانسلخ عن قضية التمييز، كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحاً في ذلك نصيحة ربه جَلَّ وَعَلَا»(١).

الحادي عشر: وجمع الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم خصال الخير، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]؛ أي: إماماً يقتدى به، أو كان وحده أمة من الأمم؛ لاستجماعه كمالات لا توجد في غيره، خاشعاً مطيعاً له، قائماً بما أمره، مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق.

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين، وأمر باتباع ملته وطريقته، فهي الدين القيم، وهي الصراط المستقيم.

وقد أكد الله عَزَّوَجَلَّ أن تزكية النفس مما شرّعه لإبراهيم وغيره من الرّسل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩]، أي أن هذا الذي ذُكر في سورة الأعلى ومن ضمنه تزكية النفس، مذكور وثابت في صحف إبراهيم وموسى، مما يؤكد درجة التوافق والتكامل بين الرسالات الإلهية.

(١) الكشاف (١٩/٣).

المبحث الرابع
الولاء والبراء

وهذا الأصل، أصل عظيم في ملة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين. والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله. وهذا أصل من أصول الإيمان»(١).

المطلب الأول: تعريف الولاء والبراء:

١. تعريف الولاء:

الولاء لغةً: الوَلْيُ في اللغة هو القُرْب، ويأتي بمعنى الحُب والنُّصْرة، قال ابن منظور: «الموالاة - كما قال ابن الأعرابي -: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلاناً: إذا أحبه. والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه»(٢).

ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة.

أما **الولاء اصطلاحاً**: «حُبُّ الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعِه المسلمين، ونُصْرةُ الله تعالى ورسولِه ودينِ الإسلام وأتباعِه المسلمين»(٣).

٢. تعريف البراء:

البراء لغة: «عَن ابْن الْأَعرَابِي: بَرىء، إِذا تخلّص، وبَرىء، إِذا تنزَّه وتَباعد، وبَرىء، إِذا أَعْذر وأَنْذَر. والبريّة: الخَلْق، بِلَا هَمز. قَالَ الفَراء: هِيَ من: بَرأ الله الخَلق، أَي خَلقهم»(٤).

(١) مقدمة كتاب الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، تقديم: عبد الرزاق عفيفي (ص٧).
(٢) لسان العرب (٤٠٩/١٥).
(٣) الولاء والبراء في الإسلام، أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري (ص٤).
(٤) تهذيب اللغة (١٩٣/١٥).

فالبراء يرجع إلى أصلين في اللغة؛ أولهما التنزه والتباعد، والثاني الخلق.

أما **اصطلاحاً**: «بُغْضُ ومعاداة كل ما يُعبد من دون الله من الطواغيت والآلهة والأنداد والأهواء»(١).

قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «بغض الكافرين ومعاداتهم والبراءة منهم ومن دينهم، وليس معنى بغضهم وعداوتهم أن تظلمهم أو تتعدى عليهم إذا لم يكونوا محاربين»(٢).

المطلب الثاني: الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله:

لا يتحقق الدّين وكماله إلا بالحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ**﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥٤].

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم»(٣).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ**﴾ [التوبة: ٢٣]. قال الشنقيطي: «نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن موالاة الكفار، ولو كانوا أقرباء، وصرح في موضع آخر بأن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ولو كانوا

(١) حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة بين تحريف الغالين وتأويل الجاهلين (ص٤٤).
(٢) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز (٢٤٦/٥)، تم وضع الحاشيتين من هيئة التحرير.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٢٣٥).

أقرباء، وهو قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

المطلب الثالث: الولاء والبراء من صميم ملة إبراهيم عليه السلام:

قال الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محذراً المؤمنين من مغبة اتخاذ أعدائه وأعدائهم أولياء، وعاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، ويكشف لهم ما في قلوب هؤلاء الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة وقدوة طيبة في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله.

فلا موالاة إلا بالمعاداة. قال ابن قيم الجوزية: «فَلَمْ يَصِحَّ لِخَلِيلِ اللهِ هَذِهِ الْمُوَالَاةُ وَالْخُلَّةُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، أَيْ جَعَلَ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ لِلّٰهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ يَتَوَارَثُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَهِيَ كَلِمَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهِيَ الَّتِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الْحُنَفَاءِ لِأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

ويقول الإمام الطبري: «في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك، فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو الله؛ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، فتبرءوا من أعداء الله من المشركين به ولا تتخذوا منهم أولياء يؤمنوا بالله وحده ويتبرءوا عن عبادة ما سواه وأظهروا لهم العداوة والبغضاء»(٢).

فملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائمة على حب الله، والإعراض عن كل محبوب سواه، كما قال ابن تيمية: «وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله، وهي ملة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»(٣).

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء (ص١٩٥).
(٢) جامع البيان (٥٦٧/٢٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٨).

الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج، أجملها فيما يأتي:

- ملة إبراهيم هي مجموع العقائد والمبادئ والأعمال التي تلقاها إبراهيم من ربّه دأب على التزامها والعمل بها فكانت طريقة له، وأوصى بها مَنْ بعده.
- ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قامت على «الشمولية»، بدءاً من العقيدة، ومروراً بالشريعة، وانتهاء بالأخلاق والسلوك والآداب العامة.
- وتبيَّن بعد الدراسة أن هناك ثلاثة مقومات رئيسة قامت عليها ملة إبراهيم؛ هي: أصول الإيمان، والتفكير المنهجي، والاستدلال المنطقي، ثم تزكية النفس.
- شكلت أصول الإيمان المتمثلة في الأركان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، أحد مقومات ملة إبراهيم الأساسية وأهمها؛ لأن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به، هو الغاية الأسمى من خلق الإنسان.
- من مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، استخدام التفكير المنهجي، والاستدلال المنطقي، المبنيين على استخدام المنطق العقلي، والإبداع الفكري، واستخدام البرهان العلمي والعملي.
- قامت ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على تزكية النفس بتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، عن طريق التزام شرع الله تعالى والتأسي بأئمة الهدى والخير.
- شكلت دعائم قامت عليها ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث تُمثل أصول الإيمان المركز الذي تدور في فلكه ملة إبراهيم، ثم تأتي الدعامة الثانية كوسيلة وطريقة لتحقيق أصول الإيمان، التي ما إن تتحقق وتترسخ في النفوس حتى تُثمر تلك الثمرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين، وهي تزكية النفس التي بها يرتقي الإنسان في منازل العبودية، ويتمكن من القيام بواجبه في الاستخلاف في الأرض وأداء الأمانة التي استرعاه الله إياه.

- وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقومات هي خلاصة قراءة أولية لنصوص القرآن والحديث، ولا يمكن الجزم أن ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تقوم على هذه الثلاث فقط، فالأمر يحتاج إلى مزيد تأمل ودراسة، لاستخلاص مقومات أخرى.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د. ت.
- **أساس البلاغة**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار عطاءات العلم، الرياض، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الخامسة (١٤٤١هـ - ٢٠١٩م)، الأولى لدار ابن حزم.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- **بحر العلوم**: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**: محمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ).
- **التعريفات**: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

- **تهذيب اللغة**: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (٢٠٠١م).
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
- **جامع البيان في تأويل آي القرآن**: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
- **جامع الترمذي**: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله** ﷺ **وسننه وأيامه**: محمد ابن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).
- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء**: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- **حقيقة الولاء والبراء بين تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وبراءة دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب من الطائفتين**: د. عصام بن عبد الله النسائي، مكتبة الإمام الذهبي بالكويت، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة (١٩٨٧م).
- **العين**: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال. د. ت.
- **فتح القدير**: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ).
- **الكليات**: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ).
- **مجموع الفتاوى**: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- **مجموع فتاوى ومقالات سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز**: جمع محمد الشويعر، طبعة مؤسسة الحرمين الخيرية، الرياض، الطبعة الرابعة (١٤٢٣هـ).
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

- **المحكم والمحيط الأعظم**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- **المحيط في اللغة**: إسماعيل بن عباد الصاحب أبو القاسم (المتوفى: ٣٨٥هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن**: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ).
- **الملل والنحل**: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م).
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري بن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

- **الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف**: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، تقديم: عبد الرزاق عفيفي، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى. د. ت.
- **الولاء والبراء في الإسلام**: أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري، دار الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٦٥
المقدمة	٦٦
تمهيد تعريف مقومات ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ	٧١
المطلب الأول: تعريف المقومات	٧١
المطلب الثاني: تعريف ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ	٧١
١. الملة في القرآن الكريم	٧١
٢. تعريف الملة في اللغة	٧٣
٣. تعريف ملة إبراهيم اصطلاحاً	٧٤
أ. عند أصحاب المعاجم	٧٤
ب. عند المفسرين	٧٦
المبحث الأول: الإيمان بأصول الإيمان	٧٩
المطلب الأول: الإيمان بالله	٨٠
المطلب الثاني: الإيمان بالملائكة	٨٢
المطلب الثالث: الإيمان بالكتب السماوية والرسل	٨٢
المطلب الرابع: الإيمان باليوم الآخر	٨٥
المطلب الخامس: الإيمان بالقضاء والقدر	٨٦
المبحث الثاني: التفكير المنهجي والاستدلال المنطقي	٨٩
المطلب الأول: النصيحة المباشرة	٨٩
المطلب الثاني: المسلك العقلي باستخدام المنطق العقلي والإبداع الفكري	٩١
المطلب الثالث: المسلك العلمي باستخدام البرهان العلمي	٩٢
المطلب الرابع: المسلك العملي باستخدام البرهان العملي	٩٣
المبحث الثالث: تحقيق التزكية	٩٥
المطلب الأول: تزكية النفس في دعوة الأنبياء	٩٧
المطلب الثاني: تزكية النفس في ملة إبراهيم	٩٨
المبحث الرابع: الولاء والبراء	١٠٢

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: تعريف الولاء والبراء	١٠٢
١. تعريف الولاء	١٠٢
٢. تعريف البراء	١٠٢
المطلب الثاني: الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله	١٠٣
المطلب الثالث: الولاء والبراء من صميم ملة إبراهيم عليه السلام	١٠٤
الخاتمة	١٠٦
فهرس المصادر والمراجع	١٠٨
فهرس الموضوعات	١١٣